وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة الجزائر-2- أبو القاسم سعد الله

كلية اللغة العربية و آدابها و اللغات الشرقية

مخبر الخطاب الصوفي

شهادة مشاركة

يسر رئيس الملتقى الدولي الأول : التصوف بين النص و طقوس الممارسة المنعقد يومي 17 /18 جانفي 2022 بجامعة أبو القاسم سعد الله جامعة الجزائر-2- منح شهادة مشاركة للباحث (ة): د/محمد سعدون *جامعة المسيلة* على مداخلته الموسومة بـ: زحام الرؤى الفنية والصوفية في شعر عثمان لوصيف عرفانا و تقديرا على مساهمته في إثراء محاور الملتقى الدولي.

عميد كلية اللغة العربية و آدابها و اللغات الشرقية

عميد كلية اللغة العربية و آدابها و اللغات الشرقية

أ. د. بورقيبة عمر

عميد الكلية

أستاذ في علم الاجتماع

رئيس الملتقى

جامعة الجزائر 2

أ.د. رشيد بوسعادة

مدير مخبر الخطاب الصوفي

مدير مخبر الخطاب الصوفي في الأدب و اللغة

أ. د. فاتح علاق

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الجزائر-2- أبو القاسم سعد الله
كلية اللغة العربية وآدابها واللغات الشرقية

الدكتور محمد سعدون
الرتبة: أستاذ محاضر (أ)
جامعة محمد بوضياف المسيلة

مخبر الخطاب الصوفي

الملتقى الدولي الأول
التصوف بين النص وطقوس الممارسة
التاريخ: 17-18 جانفي 2022

عنوان المداخلة

زحام الرؤى الفنية والصوفية في شعر عثمان لوصيف

برنامج الملتقى الدوّلي الأوّل:

" التصوّف بين النص وطقوس الممارسة"

Sufism between text and ritual practices

اليوم الأوّل :2022/01/17

الافتتاح:

1 - تلاوة آيات من الذكر الحكيم

2- الاستماع إلى النشيد الوطني.

3- كلمة السيّد وزير التعليم العالي والبحث العلمي

4- كلمة مدير جامعة الجزائر 2أبو القاسم سعد الله

5- كلمة رئيس الملتقى

6- كلمة مدير مخبر الخطاب الصوفي

1- محاضرة الافتتاح :د /مأمون القاسمي

➢ استراحة الشاي

الجلسة العلمية الأولى :11:30- 13:00

رئاسة الجلسة :أ/د .مبروك زيد الخير

المحاضر	عنوان الورقة البحثيّة	الجامعة	الوقت
د /ماجدولين نواصرة	الآثار الطوطمية في المجتمعات الصوفية الإسلامية	الجامعة الأردنية- الأردن	11:30- 11:45
د /مختار بن جلول	أنطولوجيا المصطلح الصوفيّ مابين الدلالة اللغوية والشحنة الميتافيزيقية- دراسة مقارنة بين الحكم العطائية وفصوص الحكم لابن عربي	جامعة تيارت	11:45- 12:00
د /لبنى خشة	خصوصيّة بين الصوفيّ المصطلح المعنى عمق ودقة المبنى هندسة مقاربة سيميائية لقصيدة" النادرات العينية "لعبد الكريم الجيلي	جامعة قسنطينة	12:00- 12:15
د /تاج الدّين طيبي	الشيخ أبو مدين ومدرسة بجاية الصوفيّة -ملامح تأسيس المدرسة الروحيّة المغربيّة-	جامعة الجلفة	12:15- 12:30
د/نصرالدّين بسيس	ملامح التصوّف عند الإباضيّة المغاربة	جامعة الجزائر2	12:30- 12:45
د /نزار صميدة	تجربة الكشف الصوفيّ عند القابالاه اليهوديّة :النصوص الرؤيوية منطلقا	المعهد العالي للعلوم الإسلاميّة بالقيروان جامعة الزيتونة- تونس-	12:45- 13:00

نقاش

الجلسة العلميّة الثانية: 14:30- 16:00

رئاسة الجلسة :د /سعيد بويزري

المحاضر	عنوان الورقة البحثيّة	الجامعة	الوقت
أ/د .الهادي بووشمة	طقس" الوعدة" بالجزائر -مقاربة سوسيوأنثروبولوجيّة-	جامعة تمنراست	14:30-14:45
د /سهام شريف	النص و الممارسة الصوفية النسوية - نماذج تاريخية	مخبر الدين والمجتمع - جامعة الجزائر2	14:45-15:00
د /أسماء مسلوب	الممارسات اللغوية الصوفيّة بين انزياح البنية الدلالية وتوظيف الرمزية -مختارات من شعر ابن الفارض	جامعة بومرداس	15:00 – 15:15
د /نبيل فنقال	مستطاب المراقيّ الأكسيولوجيّة من فؤاد التجربة الصوفيّة- أيقونات صفوة الإبداع الروحي بين برغسون وابن عربي-	جامعة الجزائر2	15:15-15:30
د /نور الدّين مولاي	تأمّلات في مرامز السماع الصوفيّ : "بردة المديح للإمام البوصيري أنموذجا."	جامعة تلمسان	15:30-15:45
د /عمار قرفي	التصوّف الإسلامي المفهوم والممارسة	جامعة عنابة	15:45-16:00

الجلسة العلمية الثالثة: 11:30- 13:00

رئاسة الجلسة :د /لخميسي بزاز

المحاضر	عنوان الورقة البحثيّة	الجامعة	الوقت
د /عبد الرحمن قاسم	التجربة الصوفيّة والبحث عن الذات- مقاربة إنسانيّة عرفانيّة فلسفيّة-	جامعة الجلفة	11:30-11:45
د /محمد بن الأبقع	التعليمي الصوفي الاتجاه مظاهر للنصوص الملتزمة الممارسة وتجليات المذاكرات مجموع) ،كتاب الصوفية حسن بن موسى للشيخ (والمكاتبات -أنموذجا – الشاذلي المدني المصري تحليلية استقرائية نظر وجهة	جامعة الجلفة	11:45-12:00
د /تشيتيب توفيق الرحمن	الطرق الصوفيّة ودورها في نشر الإسلام في أندونيسيا	جامعة أندونيسيا	12:00-12:15
د /سعيد شيبان	النزوع الصوفيّ في الشعر الجزائري المعاصر من سلطة التماثل إلى مسعى التفاعل	جامعة بجاية	12:15-12:30
د /بومدين دباح	سمطقة التصوّف في الشعر الجزائري المعاصر -قراءة في أعمال راوية يحياوي-مشري بن خليفة-فاتح علاق	جامعة الجزائر2	12:30-12:45
د /محمد سعدون	زحام الرؤى الفنية والصوفية في شعر عثمان لوصيف	جامعة المسيلة	12:45-13:00

الجلسة العلميّة الرابعة :14:30- 16:00

رئاسة الجلسة :د /مراد بوعرفة

المحاضر	عنوان الورقة البحثيّة	الجامعة	الوقت
د /هشام بن جدو	دربة العلاج النفسي في النص الصوفيّ الإسلامي	المدرسة العليا للأساتذة- قسنطينة	14:30-14:45
د/عبد المنعم نوار	مقاربة طقوس الاحتفال ورموزها ومعانيها في نظم الليلة المولديّة في الزاوية العثمانيّة	جامعة البليدة2	14:45-15:00
د /عبد الله حرمة	التصوّف في الملل والنحل والمجتمعات الدينيّة-إقليم توات أنموذجا-	جامعة أدرار	15:00-15:15
د /يوسف عبد علي شبيب المحمدي	أثر التصوّف على المفسرّين -تفسير السلمي أنموذجا-	العراق	15:15-15:30
د /عبد المطلب أقرور	الخطاب الصوفي في وسائل التواصل الإجتماعي الفايسبوك "Sufi discourse on social media, Facebook" تحليل في سوسيولوجية دراسة صفحات من لعينات المحتوى صوفي توجه ذات فايسبوكية	المركز الجامعي تيبازة	15:30-15:45
د /العربي بن عاشور	"الأهليل "تمثلات صوفيّة في طقوس الغناء والإنشاد	المدرسة العليا للأساتذة- بوزريعة-	15:45-16:00

اليوم الثاني /الثلاثاء :2022/01/18

الجلسة العلميّة الأولى9:00- 10:30

رئاسة الجلسة :أ/د .إيدير محند مشنان

المحاضر	عنوان الورقة البحثيّة	الجامعة	الوقت
د /سيدي أحمد ولد الأمير	التصوّف والسياسة في عرب إفريقيا -حدود التداخل ومظاهر التأثير	موريتانيا	9:00-9:15
د /خديجة جوادة	التأثير الإسلامي في كتابات التصوّف اليهودي-دراسة من خلال كتابي"الهداية إلى فرائض القلوب- وبستان العقول"	جامعة الجزائر1	9:15-9:30
د /وردة مزابية	تجلي التصوّف في شعر سيدي المختار الكنتي) ت1226 هـ(قراءة في القصيدة الفيضية أنموذجا	جامعة ورقلة	9:30-9:45
د /رشا روابح	التجربة العرفانيّة والرؤية الوجوديّة بين العرفان الإسلامي والروحانيّة المسيحيّة-	جامعة الجزائر1	9:45 – 10:00
د /جمعة حقاين	التصوّف باعتباره تجربة ينبوعيّة ونمط أوّلي للطقس التضحويّ النذريّ	جامعة باتنة	10:00-10:15

- نقاش

الجلسة العلمية الثانية:9:00- 10:30

رئاسة الجلسة :أ/د .حبيبة بوتمجت

المحاضر	عنوان الورقة البحثيّة	الجامعة	الوقت
أ/د .محمد الأمين خلادي	تربيّة الفتوّة والفتيان بين أصالة الشريعة الإسلاميّة وسنيّة التصوّف الروحيّ المتزن	جامعة أدرار	9:00-9:15
د /يوسف بن حيدة	العزلة والخلوة من الممارسة السلوكيّة إلى التأسيس للمشيخة الصوفيّة	جامعة أم البواقي	9:15-9:30
د /علي عبد الله النيجري	دور الزيارات الدينية لدى المجتمع الإفريقي إلى المغرب وتأثيراتها الروحية، الاجتماعية والثقافية))نموذج الأضروحات والمزارات((	جامعة الحاج محمود كعت العالمية- النيجر	9:30-9:45
د /آمال مكناسي	جماليّات النص الصوفيّ في" شجرة الكون "الابن عربي -قراءة أنثروبولوجية-	جامعة عنابة	9:45-10:00
د /فتيحة مهدي	التصوّف تجربة وممارسة عند محمد إقبال	جامعة الجزائر2	10:00-10:15

نقاش

الجلسة العلميّة الثالثة :14:30- 16:00

رئاسة الجلسة :أ/د .بركاهم فرحاتي

المحاضر	عنوان الورقة البحثيّة	الجامعة	الوقت
أ/د .عبد الرحمن تركي	الحلول والاتحاد عند الصوفيّة- دراسة تحليليّة في كتابات المتصوّفة	جامعة الوادي	14:30-14:45
د /المسعود قاسم	المقامات الصوفيّة في شعر الشيخ أحمد بن مصطفى العلاوي	المدرسة العليا للأساتذة- سطيف	14:45-15:00
د /مختار خماس	التصوّف الإسلامي في مرآة الدرس الاستشراقيّ المعاصر -قراءة في أعمال وليم تشيتيك.	جامعة باتنة	15:00-15:15
إيمان كاسي موسى	الحق الرّمزي للتجربة الدّينية والتصوّف في الديانات التوحيدية.	جامعة الجزائر2	15:15-15:30
د /عباس عمار ظاهري	مقاربات تأصيليّة في التصوّف المقارن	المعهد العالي للعلوم الإسلامية بالقيروان – جامعة الزيتونة - تونس-	15:30-15:45
مارية عرس	المتخيّل الإسلامي وأنساق الثقافة في النص الشعري الصوفي" ترجمان الأشواق لابن عربي أنموذجا"	جامعة ورقلة	15:45-16:00

الجلسة العلميّة الرابعة :11:30- 13:00

رئاسة الجلسة :أ/د .أحسن أعراب

المحاضر	الورقة البحثيّة	الجامعة	الوقت
د /عبد الرحمن بوكار	رمزيّة الشعائر الدينية للطريقة الشيخيّة– دراسة أنثروبولوجيّة لزاوية سيدي الشيخ بفقارة الزوى-	جامعة الجزائر2	11:30-11:45
د /أحسن الصيد	المعرفة والتخييل في السرد العرفانيّ - رواية" الحواميم "العبد الإله بن عرفة أنموذجا	المدرسة العليا للأساتذة- بوزريعة-	11:45-12:00
د /مسعود مكيد	البعد الإنساني للتصوف وحقيقة التمثلات الأنثوية في ممارساته الإبداعية.	جامعة البليدة2	12:00-12:15
د /نسيبة عطاء الله	الرّؤيةُ الصّوفيةُ عند أبي مدين التّلمساني، قراءة في كتاب" شعر أبي مدين التّلمساني) الرّؤيا والتّشكيل "(للمختار حبّار	جامعة الجزائر2	12:15-12:30
د /عائشةّ حمادو	الرمز الصوفيّ في شعر محمد الفيتوري بين اغتراب اللغة وانفتاح التأويل	المركز الجامعي تيبازة	12:30-12:45

توصيات الملتقى

اختتام فعاليات الملتقى

الدكتور: محمد سعدون
الرتبة: أستاذ محاضر –أ–
جامعة محمد بوضياف المسيلة

الملتقى الدولي: التصوف بين النص وطقوس الممارسة

Sufism between text and ritual practices

المحور الثالث: أنثروبولوجيا التصوف

عنوان المداخلة: زحام الرؤى الفنية والصوفية في شعر عثمان لوصيف

الملخص:

تناول البحث قضية أساسية في شعر عثمان لوصيف وتتمثل القضية في كونه يمزج بين الفن والتصوف، ولا يعني ذلك أنه شاعر صوفي تقليدي إنما يهدف من وراء استخدام التصوف إلى بعد فني، فالتصوف والشعر يشتركان في خصائص معينة تربط بينهما، كالميل إلى الخيال والابتعاد عن الواقع وصنع عالم خاص غير محسوس، ومن ثمة تلتقي الصور الشعرية بالصور الصوفية في تمازج كبير وانصهار شبه كلي، وتكاد تزول المسافة بين الشاعر والصوفي، لذلك فإن قصائد عثمان لوصيف يتجاذبها تياران تيار الفن وتيار التصوف، وقد أضاف إلى ذلك بعدا آخر وهو البعد الفلسفي، ومن ثمة فإن شعره يتشكل من أبعاد ثلاثة: الفن والتصوف والفلسفة.

Summary:

The research dealt with a basic issue in Othman Lousif's poetry, and the issue is that it blending art and Sufism, and this does not mean that he is a traditional Sufi poet, but aims behind the use of Sufism to an artistic dimension, as Sufism and poetry share certain characteristics that link them, such as the tendency to imagination and stay away from reality. And create a private imperceptible world, and from there the poetic images meet the Sufi images in a great blending and almost total fusion, and the distance between the poet and the Sufi almost disappears. so Othman Lousif's poems are attracted by two currents, the art stream and the mystic current, and he added to that another dimension, which is the philosophical dimension. There, Othman Lousif's poetry consists of three dimensions: art, Sufism, and philosophy.

المقدمة:

تتضمن دواوين عثمان لوصيف القصائد العمودية والحرة وبعض القصائد النثرية، إلا أن الرؤى الشعرية لديه تظل معاصرة مهما أدرجت في قوالب عمودية تقليدية، وهذه الرؤى تتسم بالكثافة والتنوع، ويمكن تصنيفها في جانبين أساسيين: الفن والتصوف، وتتمازج الرؤى لتشكل طقسا شعريا في غلالة صوفية بارزة، وهذا التداخل بينهما يجعل شعره يموج بألوان الفن والتصوف.

ومن ثمة يصعب على الدارس التفرقة بين تلك الألوان، فيبدو الشاعر أحيانا فنانا خالصا، وأحيانا صوفيا يغرق في حالات التصوف، حيث يبلغ التماهي بين الفن والتصوف عنده درجة قصوى من التلاحم والتشاكل الكلي.

الرؤى الفنية والصوفية:

اختلف النقاد والدارسون في تفسير الرؤيا الشعرية عند عثمان لوصيف، ولعلّ الأكثرية تميل إلى كونه شاعرا صوفيا يقتدي بشعراء التصوف القدماء حذو القذة بالقذة، ويرى القسم الآخر منهم أنّه شاعر فنان يوظف الألفاظ والمصطلحات الصوفية ليمكن لشعره عن دراية وقصد لقناعته بأنّ التصوف يخدم الشعر والفن، كما كان يفعل الشعراء الرمزيون والسرياليون الغربيون الّذين تأثروا بالتصوف الإسلامي فكانت أشعارهم ممسوحة بمسحة صوفية لا تكاد تبين، تتجلى وتغيب من خلال تقنية الظهور والإخفاء التي يتصف بها الشعر المعاصر الّذي يتميز بالغموض القائم عند الكثير من شعراء الحداثة، كما تأثر بالتصوف الشعراء العرب الّذين يميلون للنزعة السريالية والرمزية أيضا "لقد أحس شعراؤنا المعاصرون خصوصا ذوي النزعة السريالية الملموسة بمدى قوة هذه الصلة التي تربط بين تجربتهم والتجربة الصوفية، وعبروا عن هذا الإحساس، وعن أبرز مجالات هذه الصلة بين التجربتين"[1].

إنّ الشاعر والصوفي كلاهما يبحث عن حقيقة الوجود في رحلة فنية صوفية لا تنتهي، ولا شك أن التقارب الشديد في الرؤيا بينهما يزيل الفواصل الصغيرة في التصورات والعواطف والأذواق، فيحدث نوع من المزج والاتحاد بين الفن والتصوف، فالشاعر لما يفر من الواقع المادي يلتقي بالصوفي في عالم تخيلي فني روحي، وعين الفنان تملك مقدرة صوفية هائلة لفهم عوالم الصوفي، لذلك فإنهما يجوبان معا طقوسا متشابهة تتداخل فيها الرؤى والمواجيد والأذواق في تلاحم وانسجام يكاد يكون كاملا، وتزول المسافات في حال هذا التقارب، حيث يغدو الفنان مخلوقا ليس عاديا -يصدر عن قصد وتفكير وروية- بل يصبح مجرد أداة في يد قوة عليا كما يقول كارل يونغ Karl Young، والصوفي مجذوب أيضا نحو تلك الفضاءات الشعرية الروحية، فالتصوف والفن يشكلان إكسيرا واحدا

تتفاعل فيه معطيات الفن ومعطيات التصوف، ومن ثمة يصبح النّص الشعري "عالما سحريا يموج بالحركة والألوان، عالما لا يعترف بالأبعاد والحدود، إنّه عالم التخطي والتجاوز والسعي وراء المطلق"[2] ، إنّه عالم يغيب فيه الشاعر عن حسه ووعيه فيعتريه القلق ويتبعثر وجدانه، وربما يدخل في إحساس عبثي يطغى فيه اليأس وتختل فيه القيم، يقول عثمان لوصيف:

مـركبي حـائر وقلـبي يصـلي عـبر عتمـات العاصـف المجتـاح
هـل تـراني مبعثـرًا غـير واع بي حمـى الرحيـل والإبـراح
قلقـا ليـت أنـني كنـت أدري واجنوني خسارتي من رباحي[3]

وتداهمه رؤيا فجائية مغايرة لعالمه المثالي وتزاحم رؤيته الفنية الصوفية الأولى، وهي رؤيته للواقع العبثي الطحلبي المعيش، يقول في القصيدة نفسها:

خلـني خلـني أمـوت بلهفـي راضـيا عـن رغـائبي واقتراحـي
سائخا في طحالب العصر أهوى ثمّ أهـوى إلى القـرار المتـاح[4]

فهو يعيش بين متناقضين أو مجموعة من الرؤى المتناقضة في آن، ولعلّ الوقوع في هذه المعاناة وهي حالة جذب وشد تمزق الوجدان وتجعله يصطنع لنفسه طريقا ليتجاوز منطقه الإحساس والعقل والمعايير المادية، إنّه "اجتراح طريق جديدة للمعرفة والإدراك طريق يتجاوز به حدود العقل ومقاييسه المنطقية، وكذلك الحس ومعاييره المادية، فكان أن اجترحوا رؤية القلب والحدس أو الذوق"[5].

وينقل عثمان لوصيف قارئه إلى عالمه الشعري الصوفي عبر صورة حالمة تندمج فيها الرؤى الحية في وصلة عبر سمفونية كونية تعرج بالمتلقي المستمع إلى آفاق بعيدة، يقول في مطلع قصيدة "السماوات الأخرى":

السـماوات الـتي لا تنتهـي لم يـزل يشـربه مطلقهـا
وهـو في حـر ولهـف وجـوى بات في عمق الدجى يخلقها[6]

ويقول في نفس القصيدة:

عنـدما حلـق في آفاقهـا ضـاع في أرزقهـا أزرقهـا
كـان مـأخوذا بهـا مندهشـا يلتقـي في مقلتيـه برقهـا
النـواقيس علـى جبهتـه سـور يهمـي عليـه ودقهـا
والمجـرات علـى جبهتـه أنهـر يغمـره رقراقهـا
يلمس الضوء فتنساب الرؤى يتهـادى في المـدى زورقهـا[7]

ومن هذه الرؤية المتسامية في التأمل يحاول الشاعر أن يشرك القارئ في نشوته الفنية الصوفية وفي حلمه الخارج عن حدود الزمن، بل يحاول أن يعرج به إلى ملكوت آخر، وهذه الرحلة الوجدانية الشعرية تبين بوضوح العلاقة والتداخل البين، والتفاعل الجوهري بين الفن والتصوف، إذ هناك تشابه بين التجربتين الصوفية والشعرية في كثير من السمات والوجوه "فمن حيث المنبع تلتقي التجربتان في الرؤيا التي تدفع صاحبها إلى استبطان العالم، ومن حيث الغاية فإنهما يلتقيان في خلق عالم لا واقعي، عن طريق توحيد المتناقضات أو توحيد ما يبدو متناقضا"[8].

إنّ الشاعر ليوغل في الفن ويتفانى في اللاوعي وتنقله الرؤى الفنية حتما نحو عوالم التصوف وتندمج الرؤى الفنية بالرؤى الصوفية، ويبلغ به الحال حد الحلول والاتحاد والتأله، يقول عثمان لوصيف في ديوان "قالت الوردة":

أول الخلق عشق

وأوله شهقة واشتعال

وتمر التواريخ

ترتسم الأرض

يكتسح الماء كلّ الصحاري

وكل الجبال

وأنا المشتت في السلالات

لازلت أحيا

وأوكد

حتّى تبوأت عرس الجلال

وتساميت نحو الكمال[9]

وهذه الرؤية الصوفية الحلولية نجمت من خلال التماهي مع صور الفن لتصبح في النهاية امتزاجا كليا مع الخالق وتنتفي بذلك الثنائية، ويحدث الحلول والاتحاد، فالفن في أصله عند الشاعر يمثل معراجا نحو الالتحام بالكون ولا يلبث أن ينطق بالمستحيل ويتأله، وتزول الغيرية، وتتحقق بذلك مقولة التخلق بالأخلاق الإلهية.

ترى كيف يصل الشاعر إلى هذه الحالة من التصور؟ ربما لا نستطيع تفسير ذلك لأننا لا ندرك بوضوح تلك الخامة، فنقول إن الشاعر يمتلك مهارة يحكمها الذوق والمواهب الخاصة، فالفن قوة روحية طاغية، ويمكن تعليل ذلك بوجه من الوجوه بكون الشاعر إذا فني عن الموجودات والأغيار، واستولى عليه سلطان الفن بحثا عن

الحق يصبح كائنا متلاشيا في صفات الألوهية "حتّى لا يشهد من الأغيار لا عينا ولا أثرا ولا رسما ولا طللا، يقال إنّه فني عن الخلق وبقي بالحق"[10].

وبهذا يصبح الفنان الصوفي فاقدا للإحساس متماهيا مع الوجود الكلي، ويغدو مأخوذا وفي حالة من الجذب الشديد، تخطفه الرؤى القوية فيغيب عن عالم الشهود ويسمو بروحه إلى عالم كله بروق والتماعات خاطفة فتذهلة الرؤى المتباينة وينفصل جسدا وحسا عما حوله "فنفسه موجودة والخلق موجودون، ولكنه لا علم له بهم ولا به ولا إحساس، ولا خبر، ولكنه غافل عن نفسه، وعن الخلق أجمعين"[11].

ويصل الشاعر عثمان لوصيف إلى هذه الحال فيهيم في طلاسم الليل، ويعرج بروحه موغلا في أسرار الخفاء، مأخوذا بأصداء الشعر ودوامة الإيقاع المتجاوب مع أرجاء الكون، يقول في قصيدة بعنوان "أبجدية البحر":

أشرد في هواجس المحار
مهوما خلف مياه الليل
حيث الجرس الخفي
وحيث يلقى ربه النبي
أوغل في طلاسم السحر
وفي مدائن الأسرار
أغيب في دوامة الإيقاع[12]

إنّ الدارس ينبغي أن يفرق بين خامة الفن وخامة التصوف في شعر عثمان لوصيف ليدرك المزج الحقيقي في شعره بينهما:

أولا/ خامة الفن:

"إنّ عثمان لوصيف فنان ينصهر جوهره بجذوة الكلمة السحرية والإحساس الرقيق المكهرب بلذعة السر المستكن في كنه الأشياء ويذوب وجدانه مع جماليات الكون إلى درجة تذهله عن المحسوس وتتلاشى ذاته في طي النسيان فيغيب في السحرية والمتعة والنشوة الصوفية"[13]، يقول في قصيدة "صلاة" وهو يمزج بين الرؤى الغزلية والتصوف:

فيا صلاة القلب تحت الدجى! يا درة طلسمها مغلق!
مدي يديك إنني ميت هل هكذا يموت من يعشق؟
من أنت أنت الكون في لمحة وأنت هذا القدر المطبق
وأنت عطر الله في أرضه بل أنت...أنت الدهر والمطلق[14]

ثانيا/ خامة التصوف:

إذا كان الشعر الصوفي قد بلغ الذروة في فن التصوف فإنّ كبار شعراء المعاصر ظلوا يمتحون من ذلك التراث الغزير ويصدرون عنه بشتى الأساليب الفنية، وعثمان لوصيف هو كغيره من هؤلاء الشعراء الكبار قد تأثر بعمق بالتصوف، وتأثره جلي واضح في أشعاره، حيث أخذ عن الصوفية طريقة الوصول إلى ذروة البحث واللذة بالغوص في المجهول الغامض، فحلق في سماوات أخرى أبعد وأرحب من أجواء الفن، والمتتبع للنزعة الصوفية في شعره يجدها طاغية بشكل مكثف، بل يمكن الحكم بأنها النزعة الغالبة على فنه، وربما أدى طغيان هذه النزعة إلى تقليد شبه تام لقدماء الصوفية كابن عربي وابن الفارض وأبي حامد الغزالي والحلاج وغيرهم، وعلى الرغم من كونه ليس صوفيا سلوكيا إلا أن تلك النزعة البادية في شعره وذلك الميل الشديد والتأثر العميق بالتصوف يوهم قارئه بأنه يؤمن بالتصوف التقليدي، ويمكن إدراك ذلك من خلال قوله في قصيدة "العناق الطويل":

مبحر آه أين المجاذيف يا بحر؟ وأين القلوع؟ أين الموانى؟
أنا للموج للضياع أصلي ولعينيك واشتعل يا حناني [15]

وتتداخل الرؤى الفنية والصوفية بالرؤى الفلسفية في شعر عثمان لوصيف، ومن ثمة يمكن الكشف عن خامة أخرى في شعره وهي:

ثالثا/خامة الفلسفة:

على الرغم من كون الشاعر ينصهر بوجدانه في جماليات الكائنات الحسية، فيصف الأمكنة والمرأة، والطبيعة إلا أنه في كثير من شعره يطرح قضايا فلسفية كبرى بأسلوبه الشاعري الفني مصرحا بآرائه وأفكاره المخالفة للعادة المتعلقة بالبحث في سر الوجود، يقول في قصيدة "الخطأ":

خطا من يتبرأ
من بني بالخطايا يتوضأ؟
خطأ
يا طائش الخطو
تفيأ
هذه الأغصان
واقرأ
كلمات

كلّما أظلم ليل

تتلألأ[16]

وهنا يمتزج الوجدان الفني والصوفي والفلسفي في خانة فسيفسائية واحدة، وترتطم الرؤى وتتزاحم على أداء المعنى، وهذا التباين في الرؤى المتناقضة المنصهرة في وجدانه المضطرم بالحيرة والقلق يعبر عن التشظي النفسي الداخلي للشاعر، فهو لا يستقر على وتيرة واحدة منسجمة، ويرجع ذلك إلى كون الشاعر أو الصوفي لا يعرفان الثبات تأثرا بطبيعة الفن أو التصوف (للخلق أحوال ولا حال للعارف، لأنه محيت آثاره بآثار غيره)[17].

إنّ الصوفي يحاول في كلّ لحظة أن يستدر أفكاره من العالم العلوي، لذلك اعتبر الصوفية الشاعر عندهم مصنوعا على عين الله، جسمه في الأرض وقلبه في السماء يتسقط أخبار العالم العلوي الّذي يمده بومضات إلهية ينفذ ألقها إلى سويداء القلوب، وكذلك الشاعر الفنان يستقبل أفكاره وصوره من آفاق مشابهة لطقوس التصوف تلهمه المعاني الشعرية.

يشحذ الشاعر عزيمته ليفتق حجب الواقع المادي بذاتية صلبة فتمتد يده للشمس، ويسبق البرق للوصول إلى آفاق مضيئة تمثل البدايات الأولى، متجاوزا آلامه بحثا عن أجواء بديلة للعلاقات الحسية "لأن هذا الميدان خير ميدان تتفتح فيه ذاتية الشاعر وفرديته، فهو ينفصل عن المجتمع ظاهرا ليعيش آلامه التي هي نفسها آلام المجتمع، ثمّ إنّ هذا التصوف محاولة للتعويض عن العلاقات الروحية والصلات الحسية التي فقدها الشاعر وتلطيفا من حدّ المادية الصلب الخشن"[18]، ويتجسد هذا المعنى في قوله من قصيدة "حورية الرمل":

ظامئ للرمل

للأعماق

للجوهرة الأخرى

لنار حامية

تشعل الشهوة في الأرض الرديئة

ليد عذراء تمتد إلى الشمس

تعيد الرعشة الأولى

وألوان النجوم الزاهية

ثمّ تجلوني صبيا يتغاوى

ونبيا يسبق البرق

ويرتاد الأقاليم المضيئة[19]

في أحيان كثيرة يتماهى المبدع المعاصر مع التصوف حتّى يكون التصوف مكونا أساسيا لشعره، فتلبس قصائده الفنية لبوس التصوف، فلا نكاد نفرق بين الرؤى الفنية والرؤى الصوفية "لا أحد ينكر أن التيار الصوفي يشكل مكونا أساسيا من مكونات الفكر العربي المعاصر... وبخاصة أن النتاجات الصوفية المختلفة قد شكلت مادة ثرية خصبة لعديد النتاجات الأدبية الحديثة والمعاصرة...وقادت النتيجة إلى أن تصبح المكونات الصوفية جزءا مهما في لحمة النص الأدبي الحديث، وقد ترقى في بعض الأعمال إلى المكون الأساس الذي يتماهى معه المبدع ويوظفه بكيفية ما" [20].

أما جانب المرأة في شعر عثمان لوصيف فقد استقطب المساحة الأوسع، إلا أنها لا تمثل الرمز الصوفي المعبر عن الحب الإلهي كما عند الصوفية الآخرين، إنما القصائد الغزلية في شعره هي غزل حسي أو عذري، الهدف منه هو المتعة الحسية والجمال الظاهر، وهذه الكثافة في شعر الغزل لديه تعد همزة وصل حقيقية بين الفن والتصوف، أو أن الغزل شكل الحافز الحقيقي للشاعر لكي يلج إلى عالم التصوف فراح يجعل منه غُلاَلة رقيقة يضفيها على قصائده وعلى رؤاه الشعرية الفنية، فهو حين يصف المرأة غالبا ما يندمج في وصفها بحس صوفي، ثم لا يلبث أن يعود إلى الوصف الحسي الخالص، يقول في قصيدة "العندليب" وهو لقب أطلقه على فتاة معينة:

يتكور.. من حمأ الليل
من شهوة الطين
والنطفة الآدمية
يتكور تحت الصقيع
في الرطوبة ..أو في اليباب
ثم...إذ تحتويه الغوايات
والموجة الشبقية
ينتفض
ينهض
يعشق بنت الربيع
وترن نواقيسه في السحاب[21]

هذه القصيدة الحرة تمثل نموذجا واضحا لتوجهه الفني الصوفي، حيث تتداخل فيها الصور الفنية مع الصور الصوفية أي الوصف الحسي والوصف الصوفي، ويبدو من ذلك في جلاء تام تزاحم الرؤى والصور الحسية والمعنوية، فالشاعر تتنازعه موجتان الفن والتصوف في انصهار كلي مع الصور، إنه مخاض عسير ومعاناة شديدة أن يتوزع وجدان الشاعر بين المقدس والمدنس فتطغى لوثة الجسد تارة ثم تزول لتحل محلها نقاوة الفطرة وبراءة الضمير.

ويحتدم الصراع والزحام بين الرؤى الجزئية المتشاكلة إلى حد كبير في القصيدة، وأحيانا تشكل الرؤى الفنية وحدة متكاملة وتشكل الرؤى الصوفية وحدة مقابلة لها، ويحدث صراع آخر أكبر بين الرؤيتين، صراع عنيف يمثل نوعا من الانفصام الوجداني في دخيلة الشاعر، ثم يتفطن ويصحو من غمرة الذوبان الفني الصوفي في لحظة معينة ليقلل من سورة الحس الجسدي الطاغي، فتتحول لديه الرؤية الحسية وتغدو رؤية صوفية بحتة، يقول في ديوان "قالت الوردة":

لا أحددك الآن

لست معادلة

لست رقما ولا نظرية

أنت فوق الحسابات

فوق البراهين

فوق القوانين

والأسس المنطقية

أنت أسطورة

تتشربها الأبجديات

ملحمة الله تسطع في الأرض[22].

إن شعر عثمان لوصيف يتمثل في بعدين أساسيين:

- **البعد الأول**: ويظهر في البحث عن حقيقة الكون، والسعي لفك طلاسمه، من خلال ذلك التأمل العميق في كنه الأشياء والموجودات، ويتخذ لهذا التأمل آليات ثلاث، الفن والتصوف والفلسفة، يقول في ديوان "ولعينيك هذا الفيض":

ورأيت أنا الصوفي الشاعر

أنا الفيلسوف المراهق

رأيت في نظراتها المريبة

ما لم يخطر ببال الآلهة القديمة![23]

وهذا التكامل بين هذه الآليات الثلاث يجعل من قصائده نصوصا ذات رؤى مختلفة مكثفة مندمجة، حيث لا نستطيع فصلها عن بعضها بعضا، نظرا لتلاحمها وشدة ترابطها الداخلي المتين.

- **البعد الثاني**: ويتجسد في موضوع المرأة التي شكلت قسما كبيرا من شعره في جانبه الفني والصوفي لأن "عنصر الأنوثة والجمال في المرأة جعلاها تتبوأ مكانة رمزية عالية في الشعر الصوفي بعامة" [24]، بالإضافة إلى وصف المرأة والتغزل بها بصورة حسية، وهذان البعدان "الكون والغزل" بما فيهما من اختلاف وتنوع يدوران بشكل دائب في حركة كرونولوجية مستمرة، لذلك فإن أي شيء داخل هذه الحركية من شأنه أن يلمح إلى دلالة معينة، ويعطي معنى جديدا، وهذا المعنى قد يكون متعددا مفتوح الدلالة وذلك أن "معنى أي شيء في التجربة الصوفية له كثير من الدلالات"[25]، غير أن شعر عثمان لوصيف كان مركزا على الجانب الحسي في وصفه للمرأة، أما الجانب الصوفي فيه حيالها فقد كان ضئيلا لا يكاد يذكر، فهو ليس مثل أولئك الصوفية الذين جعلوا من المرأة أصل الكون، كابن عربي مثلا الذي قادته فلسفته ورؤيته الصوفية إلى القول بأن أصل الكون أنثى، أما عثمان لوصيف فلم يذهب به الفن هذا المذهب، بل توقف عند الرؤية الجمالية الحسية للمرأة، يقول في ديوان "ولعينك هذا الفيض":

جيدك يهذي بالندى

حقواك يرعمان بالنجوم

نهداك يزقزقان للهجرة الكهنوتية

خارج مدارات السنين

وبطنك يتلوى ويعوي[26].

وتتسع الرؤية الجمالية لديه حتى تشمل كل الرؤى الجمالية في الطبيعة فتصير مجالا حافلا بمختلف الرؤى الفنية الجمالية، يقول في قصيدة "طولقة":

النخيل هنا كالعرائس في عيدها الذهبي

والعراجين مثل الثريات أو كالحلي

والرمال التي خضبتها الدموع

الرمال التي قطرتها الشموع

غاصت الروح في صهرها الدموي[27].

إنها قصائد لا تحصى في دواوينه الشعرية تتناول الطبيعة الساكنة والمتحركة، وقد تغنى بها مختمرا ثملا اختمار الصوفي العاشق، لذلك فهو بقصائده الفنية أقرب للصوفي منه إلى الفنان الشاعر، إنه يستنطق الجمال في كل شيء حتى تغدو رؤاه زخما لا يحصى.

ويتناول الأمكنة والمدن بشكل مكثف حتى لا يكاد يترك مدينة في الجزائر زارها إلا وكتب فيها قصيدة، باتنة، ورقلة، تيزي وزو، وهران، وغيرها من المدن، وهو في هذا الوصف أيضا يثير أشكالا وألوانا للرؤى المعبرة عن التماهي الكلي الفني الصوفي في المكان، يقول في قصيدة "سطيف":

دخلت سطيف على سعفة من نخيل الجنوب

ففاجأني الطل قبل الأوان

مشيت على اللوز

كانت شوارعها تتألق والواجهات تشف

وكان السحاب يمر على الشرفات

توقفت تحت الرذاذ أصلي

رأيتك خلف الضباب

ركضت فحاصرني الورد

قلت أمد يدي

فاحتواني الشذى

وانكسرت على الأرصفة[28].

ويستمر الوصف هكذا حتى تصبح مدينة سطيف في رؤيته الشعرية امرأة فاتنة يتغنى بجمالها الساحر، وتختلط في القصيدة الرؤى الحسية الفنية بالرؤى الصوفية في نغمة سمفونية كونية يشعر بها الشاعر والفنان والصوفي على وجه الخصوص، وتصبح تلك الرؤى الغامرة والألحان الذاتية الفنية الصوفية معبرا وبرزخا نحو التوحد بالكون والحلول فيه، إذ مهما كانت حقيقة الموجودات تبدو متعددة إلا أنها تبقى مجرد أسماء وصفات لا تعدد في جوهرها إلا بالاعتبارات والنسب والإضافات[29]، ويحدث أيضا هذا المزج في الرؤى الفنية والصوفية في قصيدة "تيزي وزو"، يقول فيها:

تجلت لعيني بين الغمائم حورية

في محاجرها ينعس السنديان

وبين أصابعا يانسون ولوز

وراحت تطوف على القمم الشاهقات

تغني وتختال محفوفة بالبخور الإلهي

حتى ثملت وزيغني العشق

زاغ القصيد.. وما شف رمز[30].

يمثل هذا المقطع حقيقة ذلك التمازج الكلي بين الرؤى المتعددة، الغزل وجماليات المكان والنزعة الصوفية، ويذوب الشاعر بوجدانه في هذه البوتقة فيغدو الكل شيئا واحدا ووجودا واحدا.

الخاتمة:

من خلال هذا العرض يمكن استخلاص النتائج التالية:

- التمييز بين الرؤى الفنية الشعرية والصوفية في شعر عثمان لوصيف.
- عثمان لوصيف ليس صوفيا مقلدا.
- يوظف عثمان لوصيف الشعر الصوفي عَنْ قصد ليمنح شعره بُعدا وجدانيا معبرا عن صفاء الفن.
- يلجأ إلى التصوف في شعره لعلمه أن التصوف يخدم الفن.
- تشكيل الصورة الشعرية لديه يختلف عن الصورة الشعرية الصوفية الكلاسيكية.
- امتزاج الرؤى الفنية لديه بالرؤى الصوفية والفلسفية.

المصادر والمراجع:

1. ابن عربي: فصوص الحكم، تعليق أبو العلاء عفيفي، دار الكتاب العربي، بيروت، دط، دت.
2. أمين يوسف عودة: تجليات الشعر الصوفي قراءة في الأصول والمقامات، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2001.
3. عبد الحميد هيمة: الخطاب الصوفي وآليات التأويل، دار الأمير خالد، الجزائر، 2008.
4. عثمان حشلاف: التراث والتجديد في شعر السياب، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986.
5. عثمان لوصيف: ديوان "ولعينيك هذا الفيض"، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 1999.
6. عثمان لوصيف: ديوان أبجديات، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 1997.
7. عثمان لوصيف: ديوان أعراس الملح، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1988.
8. عثمان لوصيف: ديوان الإرهاصات، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 1997.

9. عثمان لوصيف: ديوان الكتابة بالنار، دار البعث للطباعة والنشر، قسنطينة، الجزائر، ط1، 1982م.
10. عثمان لوصيف: ديوان اللؤلؤة، دار البعث للطباعة والنشر، قسنطينة، الجزائر، ط1، 1997.
11. عثمان لوصيف: ديوان قالت الوردة، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2000.
12. عثمان لوصيف: ديوان نمش وهديل، دار هومة للطباعة والنشر، والتوزيع، الجزائر، 1994م.
13. عثمان لوصيف: ديوان شبق الياسمين، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986.
14. عثمان لوصيف: ديوان قالت الوردة، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2000.
15. علي عشري زايد: استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، الشركة العامة للنشر والتوزيع، طرابلس، ليبيا، ط1، 1987.
16. القشيري: الرسالة القشيرية في علم التصوف، دار الكتب العلمية، بيروت، 2001.
17. مجلة فصول، مج1، ع4، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1981.
18. محمد علي كندي: في لغة القصيدة الصوفية، دار الكتاب الجديد، المتحدة، ط1، 2010.
19. منير خليل الخطيب: الأبعاد الصوفية في شعر أدونيس، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، العراق، 2000.
20. ناهضة ستار: بنية السرد في القصص الصوفي المكونات والوظائف، دراسة منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2003.

الهوامش:

[1] علي عشري زايد: استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، الشركة العامة للنشر والتوزيع، طرابلس، ليبيا، ط1، 1987، ص133.

[2] عبد الحميد هيمة: الخطاب الصوفي وآليات التأويل، دار الأمير خالد، الجزائر، 2008، ص117.

[3] عثمان لوصيف: ديوان الكتابة بالنار، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، ط1، 1982م، ص12.

[4] نفسه، ص12.

[5] ناهضة ستار: بنية السرد في القصص الصوفي المكونات والوظائف، دراسة منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2003، ص217.

[6] عثمان لوصيف: ديوان شبق الياسمين، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص39.

[7] نفسه، ص40.

[8] منير خليل الخطيب: الأبعاد الصوفية في شعر أدونيس، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، العراق، 2000، ص07.

[9] عثمان لوصيف: ديوان قالت الوردة، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2000، ص36، 37.

[10] القشيري: الرسالة القشيرية في علم التصوف، دار الكتب العلمية، بيروت، 2001، ص149.

[11] نفسه، ص149.

[12] عثمان لوصيف: ديوان أعراس الملح، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1988، ص23.

[13] محمد سعدون: تجليات النص من زوايا نقدية، ديوان المطبوعات الجماعية الجزائر، 2018، ص24.

[14] عثمان لوصيف: ديوان شبق الياسمين، ص117.

[15] عثمان لوصيف: ديوان الكتابة بالنار، ص51.

[16] عثمان لوصيف: ديوان شبق الياسمين، ص7.

[17] القشيري: الرسالة القشيرية، ص511.

[18] عثمان حشلاف: التراث والتجديد، ص15.

[19] عثمان لوصيف: ديوان اللؤلؤة، دار البعث للطباعة والنشر، قسنطينة، الجزائر، ط1، 1997، ص8، 9.

[20] محمد علي كندي: في لغة القصيدة الصوفية، دار الكتاب الجديد، المتحدة، ط1، 2010، ص43، بتصرف.

[21] عثمان لوصيف: ديوان نمش وهديل، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 1994م، ص69، 70.

[22] عثمان لوصيف: ديوان قالت الوردة، دار هومة، الجزائر، 2000، ص49-50.

[23] عثمان لوصيف: ديوان "ولعينيك هذا الفيض"، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 1999، ص63.

[24] أمين يوسف عودة: تجليات الشعر الصوفي قراءة في الأصول والمقامات، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2001، ص383.

[25] مصطفى هدارة: النزعة الصوفية في الشعر العربي الحديث، مجلة فصول، مج1، ع4، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1981، ص114.

[26] عثمان لوصيف: ديوان "ولعينيك هذا الفيض"، ص59، 60.

[27] عثمان لوصيف: ديوان الإرهاصات، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 1997، ص95.

[28] عثمان لوصيف: ديوان اللؤلؤة، ص10.

[29] ابن عربي: فصوص الحكم، تعليق أبو العلاء عفيفي، دار الكتاب العربي، بيروت، دط، دت، ص24.

[30] عثمان لوصيف: ديوان أبجديات، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 1997، ص62.